من رسائل القديس صفرونيوس

رسالة إلى الأب تيموثاوس المتوحِّد عن الكلمة والإفخارستيا

الأب صفرونيوس

www.coptology.org

من صفرونيوس عبد يسوع المسيح إلى الأب الكريم الفاضل والمعلِّم الكنسي المتوحِّد تيموثاوس.

سلام ومحبة في يسوع المسيح سلامنا الوحيد وحياتنا الحقيقية الذي نراه بالإيمان الآن إلى أن نراه في اليوم الأخير رؤيةً كاملةً ليست "كما في مرآةٍ"، بل نراه كما هو، لأننا سنكون مثله.

ورؤيتُنا لوجودنا الجديد الكامل هي التي سوف تجعل رؤيتنا للمسيح كاملةً لأننا سنراه في بهاء مجده، وسنعرف –عند ذلك– الحياةَ التي أُعطيت لنا، لأن يسوع المسيح هو حياتنا الكاملة والحقيقية التي لن تنفصل عن كياننا، والتي لا نراها الآن بشكلٍ كاملٍ في انتظار تجديد الخليقة، لأن الايمان هو إعلانٌ عن عربون الفداء، وهو ما أخذناه الآن في السرائر الكنسية، وبشكلٍ خاص سُكنى الروح القدس فينا الذي يؤهِّلنا لمعرفة أسرار الملكوت.

١– ما هي العلاقة بين الكلمة والسرائر، وبشكلٍ خاص سِرّ الإفخارستيا المجيد؟ لقد تسلَّمنا من الأب ديونيسيوس الكبير أن الكلمة، أي كلمة الله التي وُضِعَت في صلوات الكنيسة وخدمات (ليتورجيات) الأسرار هي الإعلان الإلهي المعطَى بالروح القدس، وأن الكلمة لا يمكن فصلها عن السرائر، فهي مثل علاقة الخِطبة (الخطوبة) بالزواج.

التقسيم والفصل هو قانون الموت، ولم يكن عبثًا أن قال الرسول بولس:

"ويحي أنا الإنسان الشقي مَن يخلصني من جسد هذا الموت"، أي أن يفصلني عنه تمامًا لكي أنال الحياة التي لا تموت.

أمَّا الاتحاد فهو قانون القيامة والحياة الجديدة، لأن "روح الحياة قد أعتقني من الموت"، وأيضًا "أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ"، وقبل ذلك قال: "مع المسيحِ صُلبت"، فحقَّق الصليبُ الاتحادَ، لأن الرب قال إن صلبه هو ارتفاعٌ عن كلِّ صور وأشكال الانفصال، وأنه هو الذي سيجعل موت الرب يؤهِّل الكل أن يكونوا واحدًا فيه، لأنه يحمِلُ في أُقنومه الإلهي كلَّ واحدٍ منَّا، أي الطبيعة الإنسانية التي أخذها من والدة الاله القديسة مريم. ولذلك، نؤكِّد أن شريعة وقانون الاتحاد ثابتٌ في قول الرب: "وأنا متى ارتفعتُ عن الأرض أجذب إليَّ الجميع"، قال هذا عن موته الذي سيجمع أولاد الله المتفرقين إلى واحدٍ (يوحنا ١١: ٥٢).

٢- الموتُ يفصل، بل قبل تجسُّد الابن الوحيد، كان الموتُ يمزِّقُ كيان الإنسان الواحد ويفصل الروح عن الجسد. والموت يقسِّم؛ لأن الدَّاءَ الخفي، أي الخوف من الموت، يزرع الأنانية والاعتداد بالرأي وبغضة مشورة الروح القدس في وصايا الرب، وعندما قال الرب يسوع إن "أعداء الإنسان أهل بيته"، فقد كان يشير من طَرْفٍ خفيٍّ إلى ما يزرعه الدَّاءُ الخفي مِن بُغضَةٍ وكراهيةٍ وخوفٍ وعدمِ ثقةٍ.

ولكن، بعد موت الرب المحيي على الصليب المكرَّم، صار الموتُ يفصلُنا عن الخطية، لأننا بموت المسيح قد كسبنا اندحار الموت الروحي، فصار الموت الجسداني يفصل بين الحياة الآتية والحياة القديمة عندما ينحلُّ الجسدُ ويعود إلى ترابٍ.

٣- الإفخارستيا تجمعُنا. ولا يؤدِّي توزيع الجسد الواحد، أي جسد ربنا يسوع إلى الانقسام، لأن التوزيع هو توزيعُ ميراثٍ، والميراثُ الواحدُ لكلٍّ منّا هو

يسوع المسيح.

٤- أعود وأُكرّرُ ما سبق وذكرناه من قبل؛ إن الانفصال هو قانون الحياة القديمة البالية التي مآلها إلى الانحلال، أمَّا الاتحاد فهو قانون الروح القدس الذي يبني الخليقة الجديدة، ليس **من العدم** كما حدث في الخلق الأول، بل **من رأس الخليقة الجديدة ربنا يسوع المسيح له المجد**.

٥- نحن نسمع كلمة الله ونقبلها في قلوبنا من أجل معرفة الحق، والكلمة تعلِن الشركة وتقود إليها وتفتح أمام الإدراك كلَّ أسرارها، هنا تصبح الكلمةُ هي القائد، والسرائرُ هي الغاية. هنا تصبح كلماتُ الربِّ علامةً تقودُنا إلى الرب. هنا لا يمكن فصل الكلمة عن جسد الربِّ ودَمِه، لأن جسدَ الربِّ ودَمَه ليس جسدًا طبيعيًا، بل جسدٌ ممجدٌ حيٌّ بالروح القدس وحيٌّ بالاتحاد بلاهوت الابن الكلمة. ولهذا السبب، فإن الروح القدس الذي أعطى الكلمة، والذي أعطى الناسوت للابن، هو الذي يثبِّت الشهادة ويعلِن الأسرار ويكشف عن سر المسيح. لذلك، فالروح القدس الواحد هو الذي يوحِّد الكلمة والجسد والدم، لأنه الينبوعُ، ولأن الغاية، أي المسيح، هي غايةٌ واحدةٌ يعلِنُها الروح القدس لمن يشاء أن يقبل هذا الإعلان.

٦- أعودُ وأُكرّرُ أن الوسيلةَ إلى الغايةِ هي واحدةٌ، لأن المسيحَ هو الوسيط الذي يؤدِّي للمسيح والروح القدس، وإن كان يقرّبَنا ويعلِن لنا المسيح وهو "المعزّي الآخر" (يوحنا ١٤: ١٦)، إلَّا أن الرب نفسه قال عن الروح القدس إنه "يأخذُ مما لي ويخبركم"، أي يعطيكم ما يخُصني. فالروح دبَّر ميلاد الرب لكي يدبِّر ميلادنا من الماء ومنه (الروح)، لأن الربَّ وُلِدَ من العذراء لكي نُولَد نحن فيه بميلاده، ولذلك

نُولَد من الماء والروح. هو الرأسُ والباكورة الذي يسبقنا في كلِّ شيءٍ وُلِدَ هو من العذراء لكي يؤسِّس بميلاده البدايةَ الجديدةَ للخليقة الجديدة التي لا تُولَد حسب الجسد، بل حسب الروح القدس، ولادةً من فوق. ولذلك، وُلِدَ هو أولًا سابقًا وبدايةً ورأسًا وآدم الجديد.

لقد وُلِدَ الربُّ جسديًّا لكي نُولَد نحن روحيًّا. كان جسدُه ونفسُه الإنسانية ضرورةً قصوى للخلاص، وذلك لكي يحمل ناسوته بذرةَ الحياة الجديدة الآتية من فوق من عند الآب، والتي أُعطيَت له بالروح القدس. هنا يقول الرسول تلميذ الرب: "مولودين ثانية من زرعٍ *sperma* لا يفنى من كلمة الله الحية الباقية إلى الأبد" (١ بط ١: ٢٣)، لأن كلمة الله ليست نُطقًا وحروفًا فقط، بل هي إعلانٌ يدخلُ الحياةَ العقليةَ لكي يُنير ويخلق في ذهن الإنسان الفهمَ والإدراكَ الذي يُشرِكُه في الله.

وحسب قصد الله، الكلمةُ لا تنفصل عن الروح في الميلاد الجديد، أي سِرِّ الحميم الجديد (المعمودية)، لأن التعليم يسبق المعمودية، ويدوم بعد أسرارِ الانضمام إلى الكنيسة (المعمودية – الميرون – الإفخارستيا).

والإدراك الذي يتكوَّن فينا هو مِن ثلاث طبقات:

– الاستنارة التي يُعطيها الروح القدس، وهي عمل الروح القدس المباشِر والدائم في النَّفْس.

– الفهم الذي يتكوَّن فينا بمحاولات العقل التي لا تكُفُّ أحيانًا بسبب إلحاح الروح القدس وأحيانًا بسبب حُب الاستطلاع والرغبة في المعرفة، وهي حركةٌ طبيعيةٌ تحتاج إلى أن تتناغم مع عمل الروح القدس.

– الفَهم الذي يزرعه المعلِّم الكنسي الماهر، ويختلط أحيانًا بالتعليم الشعبي

الموروث الذي يحتاج من آنٍ إلى آخر للتنقية.

هذه الطبقات الثلاثة للإدراك معروفةٌ لنا جميعًا، ونحسُّ بها أحيانًا عندما تتعارض الاستنارة، عطيةُ الله لنا مع فكرةٍ سائدةٍ. فقد جاء الأخ أقلاديوس إلى الأب ديونيسيوس وقال له إنه ارتد عن الإيمان لأنه أكل مِن ذبائح الموحِّدين، وهي فكرةٌ شائعةٌ قَتَلَت كثيرين. فقال الأب ديونيسيوس إن الرسول يقول: "الطعام لا يُقرِّبُنا إلى الله"، فقال الأخ أقلاديوس: ولكنَّ الاشتراك في ولائم الموحِّدين يجعلني كواحدٍ منهم. فقال الأب ديونيسيوس: إن الاشتراك بهدف الارتداد هو ارتدادٌ فعلًا، أمَّا الاشتراك من أجل المجاملة ودعم الألفة لا علاقة له بالارتداد عن الإيمان، وعليك أن تفحص قلبَكَ من الداخل وتكتشف النيةَ والدافع قبل أن تحكم على نفسك. وهكذا حفظه الأب ديونيسيوس في الإيمان، وكَتَبَ رسالته عن الممارسات وطقوس غير المسيحيين مؤكِّدًا فيها **أن الثبات في الإيمان لا يأتي من ممارساتٍ، بل باقتناع القلب بأن الربَّ يسوع هو المخلِّص، وأن ما يحدث لنا في الحياة لا يؤثِّر في الإيمان إلَّا إذا كانت لنا نيةُ تَرك الإيمان**. لأن الإرادة تفسِّر العمل، ولا عملَ بدون فكرٍ، ولا فكرَ بدونِ اقتناعٍ. وقال الأب ديونيسيوس في رسالته السابقة إنه حتى الطقوس الخاصة بالأسرار، ليست هي الغاية، بل وسيلةٌ، وأننا إذا مارسنا طقوسًا غيرَ مسيحيةٍ، فإننا يجب أن نميِّز بين مبدأين:

– الأول، أننا لا نستخدم هذه الطقوس من أجل الاقتراب من الله، لأن هذا يتعارض مع وساطة الرب يسوع المسيح الذي هو وحده صَنَعَ سلامًا أبديًّا بين البشر والله، وأقام خدمة كهنوته من أجل كل الخطاة لكي يقرِّب الكلَّ إلى الله الآب بقوة ونعمة الروح القدس.

– الثاني، إن ما نفعله عن جهلٍ وحُسن نيَّةٍ لا يجب أن يؤخَذ على أنه ضد الإيمان، لأن الرسول قال لمن لديهم إفراز: "كلوا كلَّ ما يُباع في الملحمة غير فاحصين عن مصدر اللحوم" (١ كور ١٠: ٢٧)، وكان بعضُ هذه اللحوم يُباع بواسطة كهنة الأوثان. لذلك، علينا أن نؤمن بأنه لا يوجد إلهٌ آخر، أو ربٌّ آخر، بل الله الآب خالق الكل، وأننا لا ننال أيَّ اقترابٍ منه، أو نبتعد عنه بأي وسيلة بشرية مهما كانت، بل بالإيمان حسب عبارة الرسول: "بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه" (عب ١١: ٦)، لأننا لا نستطيع أن نُرضي الربَّ إلَّا بالإيمان بمَن ماتَ عنّا وفدانا، ربنا يسوع المسيح. وما نفعله عن معرفةٍ وبقصد الابتعاد عن الله، أو ترك الرب يسوع المسيح هو الذي يجب أن نحترس منه ونتركه.

وقال الأب ديونيسيوس إن إنكار الإيمان والارتداد يأتي من الفكر والإرادة والاعتراف بإيمانٍ آخر، ولا يأتي أولًا من ممارسة الطقوس، لا سيما تلك التي تُمارَس عن جهل.

٧– طقوسُنا الأرثوذكسية هي آدابُ سلوكٍ، ورموزها هي التي تفتح لنا باب رؤية تأمُّل الأمور السمائية الأبدية الخاصة بالرب يسوع، مثل رَشمِ علامة الصليب، أو الأدب الجَّم الذي تعطيه لنا صلوات القسمة وطقس تقسيم الجسد الذي يعلِّمنا كيف نتناولُ بوَرَعٍ وتقوى حتى لا نقعَ في تبلُّد الفكر، ونحترس من ضياع الوقار ونخطئ بذلك إلى الرب. ولذلك السبب، فإن ما يظهَر على أنه نوعٌ من التعقيد والاستغراق في الرموز، إنما هو في حقيقة الأمر تعليمٌ ضروريٌّ يهدف إلى غرس الانتباه في الفكر، لكي نقتربَ من الجسد والدم بكلِّ احتراسٍ ووقارٍ يليق بالشركة في الطبيعة الإلهية التي ننالها عندما نشترك في الأسرار. وما وضع اللفافة في يد المتناول

إلَّا هو من قبيل الدقة الروحية التي تؤكِّد لنا محبتنا النارية للرب يسوع المسيح.

٨- والكلمةُ هي رائدُ ورُبَّان الطقوس، لأن كلَّ رموزَنا تقودُنا إلى المسيح. وهي (الكلمة) مفتاح فهم الطقوس، ولذلك فإن شرح الطقوس ضروري لتقدُّم الحياة الروحية.

٩- كذلك أيضًا، عندما نشترك في الأسرار ونتناول، فإن المحبة النارية والشعور بالاتحاد ينبعان أولًا من الإيمان، ويقويَان ثانيًا بالصلاة، وينالا تقدُّمًا كبيرًا بالفهم والإدراك.

وقد نعجزُ أحيانًا عن نقل الإحساس الروحي وترجمته إلى كلماتٍ، ولكن هذا لا يفصل الكلمة عن الأسرار؛ لأن لدينا كلماتٍ لا ننطقُ بها، بل ينطقُ بها الروح القدس في القلب، وهي ليست من حروفِ أيةِ لغةٍ، بل هي لغةٌ سمائيةٌ فائقةٌ، هي إدراكٌ سِرِّيٌّ *Mystical* يصل إلى المعنى والهدف بدون الحروف والكلمات، أي الكلمة السِّرِّية *Mystical* الروحية الفائقة التي تحمل المعنى الذي يُولَد في النَّفْسِ كرؤيةٍ لِمَا هو فوق الإدراك الحسي الذي يعتمد على الكلمات ومعانيها[١].

١٠- ونحن قد تدرَّبنا على ثلاثِ مراحلٍ لفَهم الكلمة:

- المرحلة الأولى[٢] وهي تُشبِه الخروج من أرض مصر، حيث تظهر قوةُ الربِّ في الأُمور الظاهرة: شق البحر الأحمر وعبور الشعب، وهي هنا إدراكُ نصوصِ كلماتِ الله كما دُوِّنَت في الأسفار. وكما غرق فرعون في البحر الأحمر، يغرقُ الشَّكُّ تمامًا لأن ما هو مدوَّنٌ بكلماتِ ولغةِ الانسان، محصورٌ في الإدراك اللغوي

---

(١) هذه ترجمةٌ حرفيةٌ لنصٍّ صعب.

(٢) حرفيًا: الرحلة الأولى.

الذي يستخدمه الروح القدس لكي يغازِل به النَّفسَ ويقرّبها من الأسرار الإلهية، أي سِرُّ الثالوث وسِرُّ اتحاد اللاهوت بالناسوت وسِرُّ العهد الجديد، أي السرائر الكنسية التي تمارَس حسب تسليم ووصية الربِّ والمخلص.

هنا تقود الكلمةُ الذهنَ وتفتح له باب الإدراك على قدر استيعاب العقل وقدراته.

– أمَّا المرحلةُ الثانية، فهي تُشبِه نزول المنَّ والسلوى، أي الاعتماد على الطعام السمائي، أي الاستنارة التي يعطيها الروح القدس للإنسان في الداخل، حيث تنمو الحياة الجديدة بالغذاء الروحي السِّرّي الذي يعطيه الروح القدس للنَّفس، والذي يرفع الإدراكَ والفَهمَ إلى ما فوق الحروفِ والكلماتِ، أي إلى معاينة الرب نفسه، والحديث معه، والشركة في الحياة الإلهية، وتذوُّق ثمار اتحاد اللاهوت بالناسوت في الرب يسوع المسيح الواحد.

– أما المرحلةُ الثالثة، فهي ما فوق الحروف والكلمات، وهي مثل معاينة موسى للربِّ على الجبل وسماع صوتِ الله مباشرةً.

في المرحلة الثانية والثالثة تظل كلمةُ الله في الأسفار هي القاعدة التي تغرس التمييز (الإفراز)، وهي التي تُمدنا بالفرق بين المعنى الحرفي (حسب الحرف) والمعنى الروحي (حسب الروح). وهكذا، حسب الحرف، الخبز والخمر يتحولان بقوة واستدعاء الروح القدس إلى جسد الرب ودمه. وحسب الروح، الخبز والخمر هما فعلًا وحقًّا جسد الرب ودمه، أي الإعلانُ عن تجسُّدِه وموته المحيي وقيامته المجيدة والعهد الأبدي بحياته أي بدمه، وتقدُمة المحبة التي جاد بها الآب علينا في ابنه يسوع المسيح وأعطاها لنا بالروح القدس.

١١- نحن نأخذ فعلًا وحقًا جسدَ الربِّ ودَمَه. وعندما قال الربُّ: "جسدي طعامٌ حق"، فإن الحق يعلو على المستوى الحرفي الحسي، لأن الحقَّ هو المسيح الأقنوم الثاني، ولأن الحقَّ هو المحبة النارية. ومَن يصلي بالكلمات يفصل الكلمة عن السرائر، أمَّا مَن يصلي بالروح القدس فإن الكلمة والسرائر تصبح أمام قلبه حقيقةً واحدةً، وهي معاينة الرب يسوع المسيح له المجد.

١٢- وعندما نقول نصلي بالروح القدس، فنحن نقصد الصلاة التي تبدأ بالكلمات وتنتهي بالاتحاد السِّري بالرب يسوع، حيث تقْبَل النَّفْسُ الفرحَ السمائي والسلام، وتشتعل فيها نارُ المحبة الإلهية، فلا تعود تفكِّر أو تنتقل من جملةٍ إلى أخرى، بل تمتلئ بالفرح الذي هو ذاته فرحُ الرب يسوع المسيح.

١٣- كان الأب ديونيسيوس الكبير يقول لنا **إن النَّفْسَ تستطيع بقوة الروح القدس أن تسمع شفاعة الروح القدس وآهات وأنين الروح القدس التي تعلو على الإدراك والنطق. وقال لنا في مناسبة عيد العنصرة إن النَّفْسَ تلاحِظُ أشواقَ الله نفسه التي تفوق كلَّ ما يفهمه الإنسان عن محبة الله، وتحسُّ بها وتتمناها، وهنا تبدأُ أول درجة لمعاينة آهات الروح القدس، لأن النَّفْسَ ترى أن أشواقَ الله أعظم مِن قدراتها ومِن إرادتها، وتحسُّ بأنينِ الروحِ وهو يريد أن يعطي ما تعجز النَّفْسُ عن قبوله منتظرًا زمان الانعتاق في يوم الدينونة، أي يوم مجد المؤمنين، لأن الروح يئنُّ مشتاقًا لأنْ يعطي الكلَّ، أي كلُّ ما لديه، ولكنه يعلم طبيعة وضعف الإنسان، فيئنُّ مشتاقًا لأنْ يأتي يومُ مجدِ القديسين.**

١٤- نحن نأخذُ جسدَ الربِّ ودَمَه من الربِّ نفسه، حسب الإيمان الذي سُلِّم لنا. وتحوُّل الخبز والخمر بالروح القدس هو الإعلان السري عن ميلاد ربنا من

العذراء بالروح القدس. وتناولُنا من الجسد والدم بعد استدعاء الروح القدس هو شركتنا في مَسحَة يسوع المسيح. واتحادنُا به حسب الروح القدس هو شركتنا في آلامه الطوعية وموته وقيامته المجيدة. هذه ليست مراحلَ مختلفةً، بل هي ما سبق وأُعطيَ لنا من قَبْل في سِرِّ المعمودية والميرون، لأننا ننال التبني الدائم والأبدي في المعمودية ولذلك نُعطَى "خُبزَ البنين".

١٥- وعندما نشترك في ميلادِ الربِّ وصَلْبِه وموتِه وقيامِته، فإن الشِّركةَ لا تتمُ بدون الكلمة، لأن الكلمةَ هي التي تفكُّ "ختومَ" سِفرِ الربِّ، أي السرائر. لأننا نستنير بالكلمة التي لا تعمل بقوةٍ ذاتيةٍ، بل يعمل فيها واهبُها ومعطيها، أي الرب يسوع المسيح نفسه وبقوة الروح القدس.

وإذا سألنا كيف يعمل الروح القدس بواسطة الكلمة، فإن ثلاثةَ أمورٍ تبدو لنا واضحةٌ من الأسفار المقدسة:

- أولًا: الكلمة هي "مَرْكَبَةُ" الروحِ القدس، لأن الرسول بطرس كان يتكلم في بيت كرنيليوس ويقول سفر الأعمال: "وبينما هو يتكلم حلَّ الروحُ القدس وتكلَّم الجميعُ بألسنةٍ" (أع ١٠: ٤٤)، ولكن بعد ذلك اعتمد الجميع بالماء، فلم تفصل الممارسة بين الكلمة والسِّرِّ.

- ثانيًا: الكلمةُ هي الشهادة المسموعة التي تُنقَل من إنسانٍ لآخر، ولذلك وُصِفَت الكلمةُ بأنها "شهادةٌ" في سفر الأعمال أيضًا، حيث كان الرسل يؤدُّون الشهادة بقوة الروح القدس حسب وعد المخلص: "لا تهتموا بما تقولون لأن الروح القدس سوف يعطي لكم حكمة لا يقدر جميع معانديكم أن يقاوموها" (لو ٢١: ١٥).

[مراجعة ص ٤٤]- ثالثًا: الكلمةُ هي ذراعُ الحقِ، أي المسيح، لأن النبي يقول: "بسطَّتُ يديَّ طول النهار" (أش ٦٥: ٢) والرب يقول: "الكلام الذي أُكلِّمُكم به هو روحٌ وحياة" (يوحنا ٦: ٦٣)، فذراعُ الربِّ يسوع، أي الكلمة التي تمتد إلينا لكي تنقلنا من الظلمة إلى النور هي التي تحملنا في مَرْكَبَةِ الروح القدس، وتفكُّ "ختوم سرائر الرب"، لذلك السبب نَصِفُ الأسفارَ المقدسةَ بأنها "أنفاسُ الله"، لأن نسمة الحياة، أي الروح القدس الذي نَفَخَه الله في وجه آدم، وأعاده الربُّ يسوع المسيح إلينا (يوحنا ٢٠: ٢٢) هو الذي يعطي قوةَ حياةٍ ومعرفةً يحملها اللفظُّ إلينا عندما نسمعه. وأنفاسُ الله هي أنفاسُ الثالوث القدوس، لأن الآبَ أرسل ابنه إلينا، ولذلك يقول الرسول: "كلَّمنا في ابنه" (عب ١: ١)، لأنه جاء ببشارة التبني، ولذلك كان من الضروري أن يُعلَن الثالوث بواسطة الابن، وأن يتم تثبيت الإعلان بالروح القدس، ولذلك مُسِحَ الربُّ في نهر الأردن، وأعطى الربُّ يسوع الروحَ القدس لنا لأنه خادمٌ ليس كعبدٍ، بل كشريكٍ في تدبير الخلاص. ولذلك يطلب الكاهن في خدمة سِرِّ السرائر (الإفخارستيا) أن يعطي له الروح القدس كلمات التقديس، ليس لأنه لا يعرفها، بل لأنه يحتاج إلى إعلان الروح القدس الذي يعلِن تقديس السرائر، ويعلِن ذلك في صلوات الخدمة، وبرؤية روحية سِرِّية *Mystical* لمن يخدم، ولذلك نطلب من الروح القدس أن يُظهِر القُدسَات للذين تقدَّسوا[١]، لأن التقديس يبدأ بالاستنارة، والاستنارة بالكلمة التي تفتح الإدراك، والإدراك يحس بعمل الروح القدس وينتقل من المعنى الحسي العام إلى المعنى الروحي السمائي اللاهوتي. وعندما نسمع كلمات الرب "جسدي مأكلٌ حقٌّ"،

(١) حسب صلوات استدعاء الروح القدس يظهرها قدسًا للقديسين.

فإننا لا نفكِّر ولا نعتقد أننا نأكل جسد المخلص كما نأكل طعامًا باليًا فانيًا، لأن "الطعام البائد" ليس "طعامًا حقيقيًا"، بل هو يفنى بالاستعمال حسب قوة الطبيعة، أما الطعام الحقيقي فهو ذلك الذي وصَفَ نفسه بأنه هو "الحق". وهو الحق، ليس فقط لأنه لا يفنى، بل لأنه هو هبةُ حياةٍ غالبة الموت، وهو "حقٌّ" لأنه "أبديٌّ"، وهو "حقٌّ" لأنه جسد ابن الله الذي يحمل إلينا حياته الإلهية غالبة الموت.

١٦- جسدُ ربنا يسوع المسيح هو جسدَه الذي أخذه من والدة الإله، هذا حقٌّ. وهو جسده الذي صُلِبَ حقًّا على الصليب. وهو جسده الذي قام حقًّا. ولذلك، هو طعامٌ أو "مأكلٌ حقيقيٌّ".

نحن نُولَد به، وفيه ننال حقَّ التبني، ونُصلَب دائمًا معه كبنين بشوق المحبة. وهذه هي قوة حق الصليب "وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي"، لأننا معه الآن نتوقع "التبني فداء أجسادنا"، وبسبب ذلك الحق، أي الحق المتجسِّد والصَّلب والقيامة، صارت شهادة الحق هي شهادة الروح القدس بالكلمة، **وصارت الكلمة ضمن مجال عمل الروح القدس وآلة عمله التي يدخل بها المؤمن مجال الروح القدس، أي السماويات، ويرتفع بها عاليًا إلى أعلى، أي إلى ما هو فوق الإدراك الحسِّي لأن الاستنارة بالروح القدس إنما هي بواسطة الكلمة. وعندما تحدث الاستنارة، فإن الروح القدس يرفع الإدراك إلى ذات الرؤية الإلهية التي أعطاها الروح القدس للآباء القديسين.**

١٧- يؤكِّد الفصل بين الكلمة والأسرار، لا سيما الإفخارستيا، أن الذي يفصل يحيا حياة ثنائية لا علاقة فيها للروح بالجسد، ويشعر بأن جسده لم تحتويه الروح بعد، بل لم يتقدَّس بالروح القدس، ولذلك تسير حياته العقلية في اتجاه وحياته

الجسدانية في اتجاهٍ آخر.

وليس صحيحًا ما زعمه الفلاسفة من اليونانيين قبل تجسُّد الكلمة، وما جاء بعد ذلك في الهرطقات التي تفرَّعت من هذه المدارس اليونانية التي لم تَنلْ استنارة بشارة الإنجيل بقولهم "إن الجسد يتبع الروح" وأن الروح أسمى وخالدة بالطبيعة. ذلك، لأن الروح ليست أسمى من الجسد، لأن السقوط شمل الروح والجسد، ولكنها تنال سمو التقديس من الروح القدس، وهي ليست خالدة بالطبيعة لأن الموت أصاب الروح كما أصاب الجسد، ولذلك يقول سفر الرؤيا عن الهاوية إنها "الموت الثاني". وموت الروح الإنسانية –كما سبق وأشرنا– هو موتٌ حقيقيٌّ تتحول فيه الروح من المعرفة إلى الجهل، ومِن تذوق حلاوة محبة الله وصلاحه إلى رفض هذا الصلاح، وطلب الصلاح الذي يرضي أهواء الجسد، والتحوُّل مِن الشركة إلى جحد الله ومحبته، ولذلك يقول سفر الرؤيا: "ويصعد دخان عذابهم إلى أبد الآبدين". لقد ذاق الربُّ يسوع الموت الجسدي والروحي معًا، لأنه مات روحيًّا لكي يفدي الروح مع الجسد، ولم يكن موته مجرد انفصال الروح عن الجسد، بل كان ذلك الانفصال "هدمًا" لوحدة الكيان الإنساني، وفي ذات الوقت كان انطلاقًا للروح الإنسانية حاملةً معها الغفران وقوة اللاهوت التي فَتَحَت الفردوسَ للصِّ وأنارت الجحيم "ببرق اللاهوت"[١].

(١) راجع ذكصولوجية القيامة: "بموته أبطل الموت وجعل الحياة تضيء لنا، وهو أيضًا الذي مضى إلى الأماكن التي أسفل ارض". راجع أيضًا تريودون السبت العظيم من قداس القديس يوحنا ذهبي الفم: "عندما انحدرتَ إلى الموت أيها الحياة الذي لا يموت حينئذٍ أمتَّ الجحيم ببرقِ لاهوتك، وعندما أقمتَ الأموات الذين تحت الثرى صرخ نحوكَ جميع القوات السماويين: أيها المسيح إلهنا معطي الحياة المجد لك". راجع أيضًا القديس أثناسيوس الرسولي، تجسد الكلمة (٢١: ١، ٢ – ٢٢: ٣).

وعندما نقول: "يا مَن ذاق الموت بالجسد"، فإننا نعني أن "ذَوقَ الموتِ" لم يكن شرابًا ذاقه بفمه الإلهي القدوس، ولكن ذاقه بالجسد وفي الجسد بكيانه كله، فأباد الموتَ بقوة حياته الإلهية، وثبَّت الروح الإنسانية بقوة الحياة الإلهية، فلا تعود تنفصل بفعلٍ أو بقوةٍ خارجية، ولذلك يقول الرسول إن الموت الذي ذاقه قد ذاقه مرةً واحدةً، والحياة التي يحياها فهو يحياها لله (راجع رو ٦: ٩ – ١٠). وعندما يطلب منّا الرسول أن نحسب أنفسنا أمواتًا عن الخطية، فهو يريد منّا أن نتأكد من ثباتنا في المسيح المصلوب وأن نذوق موت الصليب في المسيح، أي الموت الذي فيه خلاصنا، وهو موتٌ تعمل فيه القوة الإلهية ليسوع لكي تخلع من الكيان الإنساني:

*** محبة الخطية، أي الحياة بلا شركة مع الله، وأيضًا تخلع أول أشواك الانفصال، وهي تصوُّر الإنسان أن حياته منه، وأنها تأتي منه وتعود إليه، وهي حالة استكبار مرجعُها جهل الإنسان بالله ينبوع الحياة الحقيقية.**

أما الموت الروحي الذي ذاقه الربُّ على الصليب، فقد سبق وأشار إليه بقوله: "ليس أحدٌ يأخذها مني (حياته أو نفسه) بل لي سلطان أن أضعها وسلطان أن آخذها أيضًا. هذه الوصية قبلتها من أبي" (يوحنا ١٠: ١٨)، **فقد وضَعَ حياته للموت بسلطانٍ، ودخل أعماق الهاوية ظافرًا، وانحدر لكي يرفعنا معه إلى الشركة مع الآب. وبسبب ذلك السلطان، لا يأتي إلينا الموتُ لكي يأخذ حياتنا، بل يأتي إلينا الربُّ نفسه لكي يأخذنا نحن خرافه الخاصة ويدعونا كلًا باسمه الخاص** (يوحنا ١٠: ٣)، **ذلك الاسم الذي نعرفه عند الانتقال، والمكتوب على حصاةٍ بيضاء** (رؤ ٢: ١٧).

١٨– لنراعي التسليم الكنسي الذي تبدأ فيه الليتورجية عشية يوم الرب

بالتسابيح على الخلاص العظيم والخروج الذي فدى به الربُّ شعبَه من أرض العبودية، وندخل مجمع القديسين أعضاء جسد الرب؛ الكنيسة، **مسبّحين الربَّ على صخرةِ الخلاص؛ تجسُّدُه المحيي**، مباركِين ذلك الخلاص مع والدة الإله. وها نحن نرى كيف تقودنا الكلمة، أي كلمات الصلوات إلى سِرِّ الله ومجد محبته، فهى تفتح لنا مجال الشركة في تدبير الثالوث، وتعطي لنا الاستنارة لفهم وتذوُّق نعمةَ الله. وعندما نصل إلى شركة الأسرار، فإننا بالكلمة نستدعي الروح القدس، ولكن الروح القدس روح النبوة والاعلانات يعطي لنا ثلاث عطايا متآلفة وغير منفصلة:

الأولى: استنارة القلب.

الثانية: الإيقان بصدق المواعيد، أي ثبات الإيمان.

الثالثة: الشركة في جسد الرب ودمه حسب الاستنارة والاستعلان، وليس فقط حسب الإدراك العقلي.

هذه العطايا الثلاثة لا يمكن فصلها، بل هي تعمل معًا حسب نمو ومحبة كل مؤمن. أمَّا سبب تحديدها، فهو راجعٌ إلى أن الاستنارة هي انفتاح رؤية القلب بما كوَّنته الكلمةُ من إدراك، وبما يعلو على ذلك؛ وهو الإدراك السِّرّي الذي يعطيه الروح القدس، وهو ما يُعطَى معه الإيقان بالمواعيد، وصدق مواعيد الله. وهو ما يفتح مجالات أسرار الكتاب المقدس، فنرى في كلمات الكتاب المواعيد التي قيلت والتي تحقَّقت في يسوع المسيح ربنا، والتي تنتقل كلها إلينا بالشركة في جسدِه المقدس ودمِه الكريم.

١٩- تحفظنا كلمةُ الله في مجال الأسرار لأنها تؤكد لنا أن الاتحاد بالمسيح ليس مؤقَّتًا ولا هو ليومٍ أو أكثر، بل هو -حسب الإيمان- أبديٌّ لمن يظل في

الإيمان، لأن الرب قال: "مَن يأكل جسدي ويشرب دمي يحيا بي"، ولا تستطيع الخطية أن تمحو هذا الاتحاد، لأن الربَّ رَفَعَ الدينونةَ وسمَّرها في الصليب (كولوسي ٢: ١٤)[١] وقَتَلَ العداوةَ به، وأسَّس خدمة المصالحة الأبدية.

٢٠- لا يجب أن نقع أسرى الخرافات والعادات والأعراف التي لم تُولَد ولا تربَّتْ في الإيمان، لأن الإيمان يرى المواعيد ويصدِّقَها ويفرح بها حتى ولو كانت ظروفُ الحياة تؤكِّد ما هو عكس الإيمان. ونحن نستطيع أن نميِّز بين ما هو حق وما هو خرافة على أساسٍ رسوليٍّ ثابتٍ، وهو:

أولًا: كل ما هو ليس مِن يسوع ولا به ولا هو له، هو غريبٌ عن يسوع. هذه هي القاعدة العامة التي يجب أن يفحصها كلُّ واحدٍ منّا حسب نموه ومعرفته، لأن الرسول معلم التقوى الحقيقية عندما قال: "كلُّ شيءٍ طاهرٍ للطاهرين" (تي ١: ١٦)، فقد جعل طهارة القلب والرؤيا الصحيحة هي أساس التعامل مع كل الكائنات، لأن اللهَ صالحٌ لم يخلق شيئًا نجسًا، ولكن الإنسان هو الذي نجَّس الخليقةَ بما فعله بها وبما أساء إليها، وهو ما استقرَّ في ذاكرته ودخل في كل المعاملات والعلاقات، وجعل البشر يظنون أن النجاسةَ والشَّرَ كائنين في غيرهم من البشر والكائنات، دون فحصٍ عن جذور هذه النجاسة في قلوبهم.

ثانيًا: يذكُر الإنجيلي كلمات المعلِّم الحي ربِّ المجد "المستعلي (ما هو عالٍ) عند الناس هو رجس عند الله" (لو ١٦: ١٥) لأن ميزان الحق عند البشر ليس مثل معيار الحق عند الله، لأن حسب مقياس أو ميزان الحق عند الناس، تسحقُ القوَّةُ الأعداءَ وتقتل المعارضين، ولكن حسب معيار الحق الذي لا ينفصل عن المحبة،

---

(١) "إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدًّا لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّرًا إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ".

القوَّةُ ترُدُّ الضالَ، وتجدِّد الساقطين، وتحيي الموتى، وتُقيم الأجساد، وتعطي الميراث الأبدي. لذلك، علينا أن نفحص ثلاثةَ أمورٍ لا يمكن فصلها:

١- ما هو عظيمٌ عندنا.

٢- ما نخافُ منه ونخشاه.

٣- ما نحبُّه ويكبّل إرادتنا وفكرنا.

لأن ما هو عظيمٌ عندنا نخاف أن نخسره، ولذلك نحبه ونحرص عليه، ولكن علينا أن نقف أمامه ونسأل: هل هو مِن يسوع؟ وهل نفعله بيسوع؟ وهل هو ليسوع، أم لحياتنا المقيَّدة بسلاسل الخطية والتي نطلب قطعها في الصلاة[١] "رباطات الخطية"؟ لأن محبة الله حرية، وهي حريةٌ نابعةٌ من الحق لا من التهوُّرِ والاستخفاف بوصايا الله، لأن العبدَ إذا سَمِعَ عن الحرية يظنُّ أنها الانفلاتُ من القيود، لأنه عبدٌ. أمَّا الابن، فهو حرٌّ يحيا حسب حرية المحبة التي لا استعباد فيها.

ثالثًا: ما هو مِن يسوع هو الاتحاد الأبدي الدائم الذي لا تقوى عليه الخطية لمن يثبُت في الإيمان. لذلك، لا توجد ممارسة -مهما كانت- قادرة على أن تفك[٢] هذه الشركة. وقد سلَّم لنا رسول المسيح وشاهده هذه الشركة عندما نفى قدرة كل المخلوقات في السماء وعلى الأرض أن تفصلنا عن محبة الله في يسوع المسيح (رو ٨: ٣٥)، بل حتى الحياة والموت والخليقة غير المنظورة. لذلك، ليكن لنا سلامٌ روحيٌّ ثابتٌ لا يتزعزع.

وما هو بيسوع المسيح هو للحياة والخلاص والمجد، لأنه دعانا إلى كل ما

---

(١) صلاة التحليل.

(٢) لاحظ صلاة ورشم الميرون "ختمٌ لا ينحل".

هو جليلٍ وفائقٍ ويعلو على قدرة البشر، بل لا تستطيع الخليقة الحاضرة المنظورة أن تعطيه لنا، بل يُوهَب لنا بالنعمة الفائقة التي هي منه وبه وله، وهي له لأنه يجمعنا في ميراث ملكوته.

وما هو ليسوع، هو ما نفعله نحن باسمه ولأجله: "ناظرين إلى رئيس الإيمان ومعطيه الكمال" (راجع عب ١٢: ٢) الذي نتشبَّه به، لا فيما امتنع عنه ورفضه فقط، بل فيما أَحبَّه وفَعَلَه وعاشَ له وماتَ لأجله، وهو المحبة الفائقة.

٢١- لنتعلم الافراز على النحو الذي ذكرناه، ولنحيا بيسوع وليسوع لكي ننال المجد الذي وَعَدَنا هو به، وليملُك سلامُ المسيحِ ربِّ السلام في قلوبنا جميعًا.

٢٢- سلام ومحبة لك ولكل الإخوة سائلين منكم أن تذكرونا في صلواتكم، وبالأكثر الأب ديونيسيوس الذي لازَمَ فِراشَ المرضِ طوال الأربعين المقدسة يعاني من الحمى والضعف، ولكن الربَّ رَحِمَنا جميعًا الذي أعاد إليه الصحةَ لأجل مجد اسمه.

صفرونيوس يطلب لكم من الربِّ يسوع النعمةَ والاستنارةَ لكي نحيا جميعًا حسب إرادة الثالوث القدوس الذي له المجد إلى الأبد.

+ + +